

وجه الخصوص — كان رجلاً بلا غيّاً وليس بنحوي هو الشيخ عبد القاهر الجرجاني. لقد التقت هذه الدراسات على تقديم قراءة جديدة للجرجاني في كتابيه (دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة). فقد وجدت الشيخ يفترق عن غيره ممن عالجو البلاغة بتأكيده على أنها نتاج نظم الكلمات وليس خاصية لكلمة بعينها. ووجدت هذه الدراسات بين نظرية النظم التي قدمها الجرجاني وبين بعض سمات من كتابات جومسكي أوجه شبه عديدة فشبها القوانين التحويلية التي تنقل بنية الجملة العميقة إلى بنيتها السطحية عند جومسكي بالخيارات النظمية التي تتفرع من أصل واحد وتكون متاحة للمبدع في اختيار ما يلائم مقصده. إذ أن كلاً منها يختلف عن غيره بظل من المعنى (ومثل الجرجاني المشهور على ذلك: زيد المنطلق، المنطلق زيد، زيد انطلق، انطلق زيد).⁽³⁵⁾ وزاد من تلك الشبهة أن الجرجاني وجومسكي يلتقيان في اتخاذهما الجملة موضوع درسهما الأساسي. فوحدة البحث البلاغي عند الجرجاني هو الجملة وأن الكلمات هي عناصر تننظم في الجملة والبلاغة تكمن في ذلك الانتظام وليس في هذه الكلمة أو تلك. وجومسكي كما هو معلوم يتخذ من الجملة الوحدة الأساسية

«جوانب من نظرية النحو» التي ليس فيها ما يدل على هذا الذي يقوله، بل إن د.الراجحي يربط بين نحوية الجملة – أي صحتها التركيبية – بتساؤم بنيتها السطحية مع قوانين البنية العميقة عند المتكلم.⁽³³⁾

ومنذ هؤلاء وغيرهم يكتسب مصطلح «البنية العميقة» معانٍ لا علاقة لها من قريب أو بعيد بالمعنى الاصطلاحى الأصلى لهذا المصطلح. فالبنية العميقة، بوصفها إفرازاً للمعنى تعكس أشكال الفكر الإنساني». بل إنها تشمل كل ما بنفس الإنسان. «فياختصار أن ما يظهر على السطح أو يرتسم على الوجه أو ينطلق على اللسان أو يلتمع في العيون أو... أو... من علامات وإشارات ورموز وتعابير بمختلف الأشكال والألوان والصور عبر سلسلة من التوليدات والتحويلات (الجومسکية) وعبر استخدام الأدوات والمعطيات المحدودة للتعبير عن أشياء ودلالات لا محدودة بقابلية خلاقة رزقها الإنسان إذ هي إلا انعكاس للتركيب العميق الذي يدور في خلد الإنسان ومخيلته ومشاعره».⁽³⁴⁾

غير أن أكثر شخصية اتخذت رمزاً لمقارنة التراث النحوي العربي بمدرسة القواعد التوليدية — أو جومسكي على

المثالية - كما أسلفنا - بتجريدها عن كل أثر فردي كالمهارات الكلامية عند البعض، وكل أثر غير لغوي (أو غير قواعدي على وجه أدق) كالذي يعرض للنتاج اللغوي من مؤشرات ليست من اللغة والنظام اللغوي بشيء. وتأكيد جومسكي كان دوماً على البنية اللغوية دون غيرها من أوجه البحث في اللغة البشرية - كالوظيفة اللغوية والدلالة وعلاقة اللغة بالمجتمع. وكما قلنا في الفصل الثاني من هذه الدراسة فإنه يرى - وهذا أمر يتكرر في كل كتاباته - أن الشيء المهم في اللغة البشرية بالنسبة له هو بنيتها - فهذه هي الأمر الوحيد الذي يميزها عن غيرها.

أما الجرجاني فإنه معنى مباشرة بالإبداع الفردي في الاستخدام اللغوي. وهو يريد أن يستكشف قوانين هذا الإبداع الفردي فيقدم ما عرف «بنظرية النظم» التي يريد منها القول إن الإبداع يمكن ليس في اختيار الكلمة أو لفظة بعينها بل هو نتاج اختيار الفرد لنوع من أنماط النظم التي تتيحها بنية اللغة النحوية. وهذه الأنماط هي التي يبني على اختيارها التفاضل بين مستويات الكلام (أو النتاج اللغوي مكتوباً أو ملفوظاً) بين بلغ وغیر بلغ. وهي أنماط يتواхها المتكلم (أو الكاتب) واعياً لقصده

للتحليل اللغوي. وجل كتاباته كانت عن الجملة فالرجل معنى بالأبنية النحوية أكثر من غيرها من البنى اللغوية. وكذلك فكلام الجرجاني عن المعانى المختلفة التي تنتجهما الخيارات النظمية - أي الوظائف المختلفة للأبنية المختلفة - قد أوحى للكثيرين بوجود تشابه بينه وبين جومسكي الذي أعاد للدرس اللغوي في أميركا عنايته بالدلالة - وعناته - بال محل الأول - بتقديم تفسير للظاهرة اللغوية ضمن قوانين عامة وعدم الاقتصار على الوصف والتصنيف. وكذلك فقد أوحى كلام الجرجاني عن مقاصد المتكلم . وترتبط الكلمة في نفسه بوجود تشابه بينه وبين جومسكي الذي تحدث كثيراً عن منهجه العقلي في الدرس اللغوي.⁽³⁶⁾ ولا بد لنا هنا أن نراجع بالتفصيل كل هذه الأوجه من التلاقي ونتحققها على وجه الدقة. وأول ما نجد أنفسنا تجاهه هو حقيقة أساسية تفرق بين فكري الرجلين وأرائهما: تلك هي اختلاف موضوع بحثهما. إن جومسكي معنى أساساً بالأبنية النحوية وكيفية وصفها من حيث طبيعتها وشكلها. والبنية النحوية لديه هي البنية النحوية للغة ما عند المتكلم / السامع المثالي. فهو إذن يتحدث عن البنية النحوية بصورتها

بالأسلوب من حيث كونه مدار البلاغة. إذ يكمن وراء النظم معاني النحو وهذه تفرق نظماً عن نظم. فلكل واحد منها وظيفة يختص بها - وهو ما يطلق عليه الجرجاني «معاني النحو». إن كلام الجرجاني عن النظم وعن أنه سبب مزية الكلام عن الكلام وفضل الشعر على الشعر يوضح أنه يتحدث عن مقدرة فردية هي غير القابلية (الكافية) اللغوية التي يتحدث عنها جومسكي. فهذه تساوي - بالنسبة لجومسكي - معرفة المتكلم / السامع المثالي للقوانين والمواضعات اللغوية ومنها القوانين النحوية. والمقدرة التي يتحدث عنها الجرجاني هي مقدرة يختلف فيها أفراد الجماعة بحيث يتفاوضلون فيما بينهم بمقدار ما يمتلكون منها. ومن هذا جاء إعجاز القرآن الكريم في أنه بلغ درجة من هذه المقدرة يعجز المتكلمون عن بلوغها.

ويتعلق بهذا مسألة العقلانية التي أوردت كوجه للتشابه بين مقولات جومسكي ومقولات الجرجاني. فجومسكي يعد اللغة ظاهرة ذهنية والقابلية اللغوية هي المعرفة بهذا النظام الذهني ومن هنا جاء استخدامها وتلقيها نشاطاً أو فعالية ذهنية في جوهرها. ويبدو أن هذا هو الذي وضع جومسكي

إقامة علاقات بين الألفاظ يتواخى منها معاني النحو وهذا هو النظم. «فليس النظم شيئاً غير توخي معاني النحو وأحكامه فيما بين معاني الكلم».⁽³⁷⁾ ومعاني النحو هذه ليست القوانين العامة لصوغ الجمل. فالقوانين العامة التي تحدد البنية النحوية للجملة هي مما تشتراك به الجماعة اللغوية – أو ما يتصف به المتكلم / المستمع المثالي – بدون تفاضل بين الواحد والأخر. وهذه القوانين العامة هي موضوع اهتمام ودرس جومسكي وهي التي ينصب عليها كلامه. وبينما أن الجرجاني يفرق بين النظم (توخي الفرد المبدع لمعاني النحو في الاستخدام اللغوي) وبين أصول النحو وأحكامه وقوانينه العامة. فهو يتحدث عن هذه الأخيرة في مدخل كتابه «دلائل الإعجاز» بكلامه عن تعليق أجزاء الجملة الواحد منها بالآخر.⁽³⁸⁾ ولا أظنه في هذا الخصوص يختلف عن المخطط النحوي الذي يرسمه النحاة العرب لبنية الجملة النحوية وحدودها والسمات النحوية التي درسوها والمبادئ أو الافتراضات النظرية التي أتبواها.

غير أن هذا الأمر – أي القوانين العامة التي تحكم البنية النحوية – ليس موضع اهتمام الجرجاني، فالرجل معندي

ال فعل «يولد» بأنه يعني إعطاء وصف بنوي واضح وجلي للجملة لا يدع مجالا للخدس والظن.⁽⁴⁰⁾ فإذا حسب نظام من القواعد حساب كل جمل اللغة سيقال عنه أنه ولدها. وعلى هذا فالتلويذ هنا غير «الإنتاج» إلا إذا أخذنا «ينتتج» بمعنى أوسع كثيراً من المعتاد بحيث يعني «تصف» أو «تعطي» والقواعد تكون توليدية حين تكون واضحة وجلية ومفصلة.⁽⁴¹⁾ ولعل الذين فهموا التلويذ بهذا المعنى الخاطئ خلطوا بينه وبينخلق والاشتقاق. فجومسكي يتحدث عن الجانب النحوى من القواعد على أساس أنه الجانب الخلاق. فقوانين القواعد النحوية هي التي تولد جملأ مع أوصافها البنوية. وللإلاحظ القارىء الفرق بين «القوانين التي تولد» والجمل الأصلية التي «تولد جملأ أخرى» على حد قول أولئك الباحثين.

ومن ناحية أخرى فإن الأنماط المتنوعة التي تقدم أمثلة على طرق النظم المتعددة التي تنتمي إلى أصل واحد (كما يمثلها عبد المطلب محمود وجعفر دك الباب) والتي هي مدار بحث الجرجاني لا يمكن النظر إليها - وفقاً للمنهج التوليدى - على أساس أنها تمثل بالضرورة البنى السطحية الناتجة عن بنية عميقة واحدة

والجرجاني موضع المقارنة والشبه. ولكننا بتقصي مقولات الاثنين نجد أن النشاط العقلى الذى يتحدث عنه جومسكي ليس أكثر من هذه المعرفة بقواعد اللغة والتى يمتلكها المتكلم الأصيل كسليقة طبع عليها. أما الجرجاني فكلامه عن النشاط عقلى واع للفرد المبدع يختار عبره هذا الأسلوب أو ذاك متوكلاً فيه - كما أسلفنا - معانى معينة للنحو.

ولعل كلمة «تلويذ» قد زادت في تعقيد الأمر فقد فهم البعض أن التلويذ - وهو مصطلح من مصطلحات مدرسة القواعد التوليدية - يعني إنشاء أنماط متنوعة من مجموعة ألفاظ محددة أو من بنية عميقة تعمل كأصل لتلك الجمل التي تكون فروعاً لها. وهذا الفهم الخاطئ للتلويذ قد يوحى (أو أنه أوحى) بشبهة بين جومسكي والجرجاني.⁽³⁹⁾ فالجرجاني يتحدث أيضاً عن الأساليب والأنماط المختلفة التي يمكن ردها إلى أصل واحد، والتي تؤدي معانى مختلفة تختلف بين النسق والنسق. ومن نافلة القول تكرار الحديث أن التلويذ لم يقدمه جومسكي بهذا المعنى أبداً ولم يقصد به هذا الاشتقاء لجملة من جملة أخرى. وفي الصفحات الأولى من كتابه «جوانب من نظرية النحو» يعرف جومسكي

جومسكي والجرجاني ويidel ذلك على مدى الاختلاف الحقيقي بين مقولاتهما. وقضية التوليد تقودنا إلى وجه آخر من أوجه الشبه المزعوم بين جومسكي والجرجاني: تلك هي حقيقة القواعد النفسية. فجومسكي لم يقدم نظامه القواعدي على أساس أن له حقيقة نفسية. فطريقة عمل القواعد مثلاً لم ينسب إليها أية مطابقة مسبقة مع العمليات الذهنية التي يتضمنها الاستخدام اللغوي قولاً وإدراكاً. ويكرر جومسكي في أكثر من موضع أن صحة هذه القوانين لا تنبع من حقيقتها النفسية (ولو أن ذلك من المرغوب به بالتأكيد) ومما ثلتها لما يجري في الذهن فعلًا، بل من كونها تحسب حساباً دقيقاً وصحيحاً للظاهرة اللغوية. والمعنى وراء إثبات الحقيقة النفسية للقوانين التي يقترحها اللغوي لا يزال يشكل جزءاً كبيراً من البحث اللغوي وهو افتراض تجريبي (أي أنه يخضع في صحته أو زيفه للتجربة). فالحقيقة النفسية للتحليلات والافتراضات ستظل مداراً للبحث سعياً وراء فهم أكبر للأساس الحيوي (البايولوجي) لطبيعة اللغة البشرية وجواهرها.

أما الجرجاني المعنى أساساً بالنتاج اللغوي الذي يمتاز به فرد دون آخر -

عبر قوانين التحويل.⁽⁴²⁾ فصلة جملة بأخرى (أو بعبارة أصح صلة بنية جملية بأخرى عن طريق التحويلات) تقتضيها وتحكمها وجود تبريرات نحوية بحثة لقيام مثل هذه الصلة. وعلى هذا فإننا - وعلى افتراض أن نسق العناصر في جملة «انطلق زيد» يمثل نسقاً في بنية هذه الجملة العميقـة، لا يحق لنا الزعم بأن جملة «زيد منطلق» مشتقة من نفس البنية العميقـة التي اشتقت «انطلق زيد» منها ما لم يدعم ذلك تبريرات نحوية تطرد مع الرؤية العامة للبنية نحوية للجملة العربية ومع الفرضيات المنهجية التي تفترض لتفصـير الظواهر نحوية - مما فصلناه آنفاً. والذي يبدو هو أن تشابه هذه الجملـ في معناها هو الذي دعا إلى تصور اشتقاقها من بنية عميقـة واحدة على اعتبار أن البنية العميقـة تمثل المعنى. وهنا تجدر الإشارة إلى مسألـة مهمة تتلخص فيما يلي، أن اشتراك جملتين في بنية نحوية عميقـة واحدة يقتضـي (وفقاً للنظرـة السائدة في الستينـات) أن يكون لهما معنى واحد، غير أن هذا لا يقتضـي أن يكون لكـل جملتين لهما معنى واحد بنية نحوية عميقـة واحدة. إن هذا يعطـينا صورة واضحة عن مدى التوسيـع في فهم آراء

يوجب التأني وسبر غور ما يعنيه بالتحديد قبل تبنيه دليلاً على تلاقي فكري الجرجاني وجومسكي.⁽⁴⁵⁾ فهما يتكلمان عن أمرتين مختلفتين لأنهما أصلاً يعالجان موضوعين مختلفين.

خاتمة :

إن الذي نخلص إليه مما تقدم هو أنه وبالقدر الذي يمكن به استخلاص مشترك بين منهجين للبحث اللغوي يفصل بينهما ما ذكرناه من بعد زماني ومكاني وحضاري. فإن المنهجين اللذين كانوا موضع دراساتنا (وهما المنهج التوليدى التحويلي (متمثلاً بكتابات جومسكي) ومنهج (الدرس النحوى العربى) يشتراكان في سمتين أساسيتين للبناء النحوى. فكلاهما يفترض مستويين للبنية النحوية للجمل وكلاهما يؤسس هذا الافتراض على حجج نحوية مستمدة من الحدود البنوية على التركيب الجملي وعلى الافتراضات النظرية التي وضعت لتفسير الظاهرة نحوية. غير أن هذا لا يجوز أن يعني بحال أنهما يشتراكان بأكثر من هذا من أدوات البحث وتفاصيله. فقد أسس جومسكي رؤيته للنحو على أساس رياضية، وتقدم افتراضاته وصفا قواعديا بأدوات

أى الإبداع - وليس المعرفة اللغوية عند الإنسان عموماً - وهذا كل الاختلاف الجوهرى فله موقف آخر من الحقيقة النفسية للنتاج اللغوى. فهو يرى أن الجمل تترتب عناصرها حسب ترتيب المعانى في نفس القائل. يقول في دلائل الإعجاز «إن الأمر على ما قلناه من أن اللفظ تبع المعنى في النظم وإن الكلم تترتب في النطق بسبب ترتيب معانيها في النفس».⁽⁴³⁾ وهكذا «إذا وجب المعنى أن يكون أولاً في النفس وجب اللفظ الدال عليه أن يكون مثله أولاً في النطق». ⁽⁴⁴⁾ إن هذا القول، حين يؤخذ بكل ما يعنيه، يعني أولاً نفياً قاطعاً لبنية نحوية ذات حدود واضحة تفرضها الانتظامات النحوية لكل لغة، أو نفياً لوجود مستقل لمثل هذه الانتظامات - أو لطرق تعليق الكلمات بعضها ببعض ونظمها في الجملة العربية. وهي وبالتالي نفي لوجود النظام اللغوى المستقل. وهذا القول يعني أيضاً أنه لن يكون هناك فرق بين البنية نحوية للجمل في لغة ما عنها في لغة أخرى. فما دام نسق الكلمات ينتج عن ترتيب معانيها في النفس إذن ستصبح بنى الجمل نحوية واحدة في كل لغات العالم. وليس لنا أن نناقش هذا الادعاء هنا فهو مسألة تجريبية واحسب أنه

معنيين بقضية واحدة بل كان كل منهما معنياً بأمر لا يعني الآخر به. ففي حين لم يعن الجرجاني بالقوانين النحوية العامة التي تكون المعرفة اللغوية عموماً - وهو مجال بحث واستقصاء جومسكي - نجد أن هذا قد تجنب الحديث عن النتاج اللغوي وما يدخل فيه من عوامل ومؤثرات وهو ما كان بعضه مدار بحث الجرجاني الذي كان همه الأكبر وضع حدود واضحة للإبداع.

رياضية. بل أن النموذج الرياضي كان بالنسبة له مثلاً يحتذى به في تحديد افتراضاته. وهذا لم يكن من سمات منهج الدرس النحوي العربي. ولابد من الإشارة هنا إلى أن هذا لا يعني أن المنهج الأول أكثر منطقية من المنهج الثاني - وليس في هذا مما يؤخذ على النحاة العرب. ونستخلص أيضاً أوجه الاختلاف الحقيقة بين مقولات جومسكي ومقولات الجرجاني فيما اشتبه بأنهما يتماثلان فيه. إذ أنهما - كما قلنا - لم يكونا

الهوامش

(1) انظر : Chomsky, N. *Aspects of the Theory of Syntax*, (Cambridge, Mass. MIT Press, 1965). وقد ترجم هذا الكتاب إلى العربية. ونشرته جامعة البصرة 1985.

(2) Chomsky, N. *Syntactic Structures*, (The Hague : Mouton, 1957).

وقد ترجم هذا الكتاب إلى العربية ونشرته مديرية الشؤون الثقافية في العراق 1987. في هذا العرض نستند إلى الفصل الأول من كتاب جومسكي جوانب من نظرية النحو I Chomsky, *Aspects*, ch.1 وهو يمثل المطلقات الأساسية للنظرية التي تقوم عليها هذه المدرسة والتي لم تتعرض للتغيير مع تطورها. وهكذا فإننا نراها تتكرر في كتابات جومسكي التالية.

(4) لتفصيل هذا ينظر في Chomsky, *Aspects*, ch. 3; Chomsky, *Essays on Form and Interpretation* (New York : North Holland, 1977); Chomsky, *Rules and Representations*, (New York : Columbia Univ. Press, 1980).

(5) ينظر في كتاب Chomsky, *Reflections on language*, (New York : Pantheon, 1975).

Chomsky, *Language and Problems of Knowledge*, (Cambridge, Mass. : MIT Press, 1988) p. 25(6)

Chomsky, *Syntactic Structures*, Ch. 4(7)

Chomsky, *Aspects*, Ch. 2(8)

Chomsky, "Deep Structure, Surface Structure, and Semantic interpretation", In *Semantics : An Interdisciplinary Reader*, D. Stein-berg and L. Jacobovits (eds.), (Cambridge : CUP, 1971).

(10) لفرض الاطلاع على تفصيل النقاش الذي دار حول الدلالة والنحو وال العلاقة بينهما ليراجع القارئ الكريم Newmeyer, F., *Linguistic Theory in America*, (New York : Academic Press, 1980).

(11) Chomsky, Deep Structure,

(12) لينظر القارئ الكريم في الحجة الأساسية التي قدمت في الفصل الرابع من كتاب جومسكي «البني التحوية»، وهي حركة الأفعال المساعدة إلى بداية الجملة في الجمل الاستهفامية في اللغة الإنجليزية.

.Chomsky, Rules and Representations, pp. 143-151

حيث هناك تفصيلات عن سبب إيلاء هذا المستوى الجديد دوره وهو اعتماد التأويل الدلالي عليه بدلاً من اعتماده على البنية العميق للجملة.

(14) المصدر السابق p. 151

(15) سيبويه، الكتاب بتحقيق عبد السلام هارون (بيروت : عالم الكتب) الجزء الأول ص 34.

(16) المصدر السابق ج 1، ص 34.

(17) ابن هشام، مفني اللبيب عن كلام الأعراب، بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ج 2، ص 376

(18) الرضي الاسترابادي، شرح الرضي على الكافية (بنغازي : منشورات جامعة بنغازي 1973) ج 1، ص 190 - 191.

(19) ابن هشام، المصدر السابق. ج 2 ص 605

(20) المصدر السابق، ج 2، ص 608

(21) المصدر السابق، ج 2 ص 610

(22) سيبويه، المصدر السابق، ج 1، ص 81

(23) ابن هشام، المصدر السابق، ج 2، ص 447

(24) المصدر السابق، ج 2، ص 613

(25) المصدر السابق، ج 2 ص 649 - 650

(26) ابن جني، الخصائص، بتحقيق محمد علي النجار (القاهرة : بار الكتب العصرية 1952) ج 3 ص 261

(27) ابن هشام، المصدر السابق، ج 2، ص 623

(28) المصدر السابق، ج 2 ص 649

(29) من قبيل هذا قول محمد رضا مبارك في معرض حديثه عن أوجه الحداثة في مقولات الجرجاني البلاغية وصلتها الدقيقة بمقولات جومسكي ضمن المنهج التوليدى: «علمنا أن جومسكي قد درس الجرجاني دراسة وافية واطلع على نظرية النظم والتعليق اطلاعاً كافياً». ينظر القارئ الكريم هذه السطور في محمد مبارك، «ملامح لغوية تحويلية عند العرب». آفاق عربية العدد الأول السنة الرابعة عشرة. كانون الثاني 1989، ص 118 - 120.

(30) تضرب للقارئ، أمثلة عليها في الدراسات والمقالات التالية:

أ. نهاد الموسى، «نظريّة النحو العربي». (بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر 1980).

ب. عبد الرحيم، «النحو العربي والدرس الحديث». (بيروت : دار النهضة العربية 1979).

ج. خليل عمارة «البنيّة التحتية بين عبد القاهر الجرجاني وجومسكي». الأقلام، العدد التاسع 1983.

د. محمد رضا مبارك، ملامح لغوية تحويلية...

هـ. محمد رضا مبارك، «نظرة مقارنة في الإنجاز اللساني العربي». الأقلام. العدد التاسع. 1989، ص 130 - 131.

(31) انظر عمارة، المصدر السابق ص 91. ومن قبيل التوسيع الأكبر أن يستخدم د. عمارة مصطلح «المعنى العميق» ليعني به البنية العميقه ولو أنه لا يوضح ما يقصد به هذا المصطلح ولا يقابله «معنى غير عميق» أو يحدد ما يقصد بالعمق في المعنى. وبدون هذه فإن استخدام مثل هذه التعبيرات غير المحددة مسبقاً لا يمكن أن يحمل محمل الجد.

(32) عمارة. المصدر السابق ص 91. حيث يحيلنا إلى صفحات من كتاب جومسكي «جوانب من نظرية النحو» لا نجد فيها ما يتحدث عنه الكاتب. فلعله قد توسع في فهم ما أراده جومسكي. وهذا هو موضع الخلل وهو ما نحن بصددده.

(33) الراجحي، المصدر السابق ص 115.

(34) محمد علي الحسيني، «لغة الفن وفن اللغة في ضوء نظرية جومسكي وعلم اللغة الحديث». مجلة فنون، العدد 142 (1981).

- (35) انظر دك الباب، المصدر السابق، وعمایره المصدر السابق، ومقالی محمد رضا مبارک الماری الذکر.
- (36) انظر محمد عبد المطلب، «النحو بين عبد القاهر وجومسکی»، مجلة فصوص، العدد الأول المجلد الخامس، 1984.
- (37) الجرجاني، المصدر السابق، ص 404
- (38) الجرجاني، «مدخل في دلائل الإعجاز»، ويجد القارئ، مناقشة مفصلة لهذا الفرق في مقالة نصر أبو زيد «مفهوم النظم عند عبد القاهر الجرجاني»، مجلة فصوص، العدد الأول، المجلد الخامس، 1984.
- (39) عمایره. المصدر السابق.
- Chomsky; *Aspects*; Ch.1(40)
- (40) المصدر السابق، ويذكر جومسکی هذا التصور في كتاباته التي تلت ذلك الكتاب، على سبيل المثال. *Chomsky; Rules and Representations*, p. 220
- (41) لابد من الإشارة هنا مرة أخرى إلى أن التحويلات لا تختص بغير نسق عناصر الجملة فحسب بل أنها تمثل كل التغييرات النحوية التي يفترض أنها تطرأ على بنية الجملة لتصل بها إلى بنيتها السطحية. والقارئ لابد مطلع على طبيعة هذه التحويلات وعملها. وما تجدر الإشارة إليه أيضاً أن جومسکي يفرق بين التحويلات النحوية التي تجري على بنية الجملة من نقل الاسم أو نقل عبارة الاستفهام وبين تحويلات الحذف. وبين هذه كلها وبين التحويلات الأسلوبية التي تغير من نسق العناصر فيها على أساس أن هذه الأخيرة لا تتقييد بالقيود البنوية التي تحكم شكل وحدود التحويلات. أما الأولى فهي التي يطلق عليها اسم التحويلات القواعدية فهو يقول: «إن قوانين تغيير النسق الأسلوبية تختلف تماماً عن التحويلات القواعدية التي هي في جوهر نظام القواعد. ويمكن الاحتجاج أن الأولى ليست قوانين قواعدية بل هي أقرب ما تكون إلى قوانين آراء». Chomsky; *Aspects*; p. 127.
- وفي كتاباته الأخيرة يفصل بين التحويلات الأسلوبية وغيرها انظر:
- Chomsky; *Conditions on Rules of Grammar*; Linguistic Analysis 2: pp. 303-351.
- (42) الجرجاني، المصدر السابق ص 45
- (43) المصدر السابق ص 43.
- (44) لينظر القارئ الكريم في دراسات عمایره ودك الباب ومقالات مبارک حيث يجد أن هذه النقطة تتخذ وجهاً من أوجه التشابه.

حول معاني حروف المعاني وأصول استعمالها

بِقَلْمِ : حَسَنُ عَبَّاسٍ

باحث من سوريا

متراقة بالحركات الجسدية المناسبة، وذلك للتعبير عن حاجاته الغابية المحدودة.

2. ورثنا عن المرحلة الزراعية بزعامة المرأة أصول أصوات الأحرف الإيمائية: «الفاء - اللام - الميم - التاء - الذال».

قد اعتمد العربي طريقة النطق بأصواتها متراقة بالحركات الجسدية المناسبة وذلك للتعبير إيماء وتمثيلاً عن حاجاته الحضارية المستجدة في المرحلة الزراعية. وقد استعرضنا في الحلقة (السابعة) خصائص ومعاني ثلاثة أحرف هي:

أ - (الفاء)، لمعاني الشق والحرق والتلوّع، بما يضاهي طريقة النطق

لما كانت الحلقات الإحدى عشرة تشكل وحدة (لغوية - تاريخية - اجتماعية)، فإنه لابد من تذكير القارئ، ولو في لمح، بما انتهينا إليه في الحلقات السابقة(*):

لقد مر الإنسان العربي في جزيرته الأم بمراحل حياتية ثلاثة، هي (الغابية، فالزراعية، فالرعوية) قد أبدع خلالها أصول أصوات حروفه تباعاً، مرحلة حياة بعد مرحلة.

1. قد ورثنا عن المرحلة الغابية أصول أصوات الأحرف الهيجانية الأربع، هي : «الهمزة الزمارية، والألف اللينة، والواو والياء الجوفية». وقد اعتمد الإنسان العربي خصائصها الصوتية الهيجانية وطريقة النطق بأصواتها

(*) صدر للكاتب في مجلة اللسان العربي، عدد 33 (1989م) سبع حلقات في موضوع البحث. وتنشر له المجلة في عددها هذا الحلقات الأربع الباقية.

وما أحسب أن ثمة ضرورة ألحّ منها الآن لاعتماد الأدلة التاريخية والأثرية والدينية والاجتماعية والاقتصادية وما إليها، للبرهان على تعاقب مرحلتي الزراعة فالرعوي، بزعامتِي المرأة فالرجل، تثبيتاً للأدلة اللغوية.

فالعلاقة بين المرحلتين الزراعية والرعوية لم تقتصر على إفراز العلاقة الجدلية بين الإيمائي التمثيلي والإيحائي في معاني الحروف العربية، وإنما تجاوزت ذلك إلى إفراز العلاقة الجدلية بين الأنوثة والذكورة في مختلف مجالات الحياة على مدى تاريخ الحضارة الإنسانية إلى يومنا هذا. ولقد أوجز (اشبنكلر) أحد فلاسفة القرن العشرين هذه العلاقة الجدلية بينهما بقوله: «المرأة تمثل الطبيعة، والرجل يمثل التاريخ».

استطراد — ما أحسب أن أحداً قد كشف عن دور المرأة الحضاري بأدق مما قاله «لويس ممفورد»: «لقد ترك وجود المرأة أثره في كل جزء من أجزاء القرية، لاسيما منشآتها المادية، بما تحويه من الأسيجة الواقية، وهي تنطوي على معانٍ رمزية لم يستطع التحليل النفسي الكشف عنها إلا مؤخراً. وكلها تتخذ أشكالاً مادية تعرب عنها في البيت والفرن وحظيرة الماشية وصومعة

بصوتها: «ضرب الأسنان العليا على الشفة السفل، وانفراج الفكين عن بعضهما البعض».

ب — (اللام) لمعاني الالتصاق، بما يضاهي : «الالتصاق اللسان بسقف الحنك».

ج — (الميم) لمعاني المص والرضاع والضم والجمع والانفلاق، بما يضاهي : «انطباق الشفتين على بعضهما البعض في ضمة متأنية حبساً للنفس، ومن ثم انفراجهما على مهل».

وقد أرجأنا الحديث عن حرفي (الثاء والذال) إلى الحلقات القادمة.

3. أما المرحلة الرعوية فقد ورثنا عنها باحتمال شديد باقي الحروف التي عبر العربي بموجبات أصواتها بلا حركات جسدية عن احتياجاتِه الحضارية والثقافية: طريقة راقية في التعبير لا مثيل لها اليوم في أي من لغات العالم.

الحلقة الثامنة :

المرأة والمرحلة الزراعية

أولاً — عود على بدء :

لقد وعدنا القراء في الحلقة الأولى، أن لا نعتمد في تصنيف مراحل إبداع الحروف العربية إلى غابي، فزراعي، فرعوني، غير الأدلة اللغوية، «إلا عند الضرورة».

بأجنحة زاخرة بالقوة والحيوية من خصائص الحروف الإيمائية التمثيلية، وعلى هدي المعاجم اللغوية، إلى نشأة اللغة العربية البكر في المرحلتين الغابية فالزراعية.

ولكن قبل أن ننهي رحلتنا اللغوية التاريخية هذه، هبوطاً في طريقنا إلى المرحلة الرعوية وحروفها، نرى أن نتعرض هنا لبعض الشكوك المتوقعة حول ما توصلنا إليه من نتائج.

فلئن اقتنى السادة القراء بانتماء الحروف العربية إلى مراحل غابية وزراعية ورعوية، إلا أن البعض منهم، ولرواسب رعوية ذكورية، قد ينكر علينا إسناد زعامة المرحلة الزراعية وحروفها إلى المرأة ذات البنية الهشة الضعيفة، وليس إلى الرجل الصلب القوي. ولو أنتنا في عهدمحاكم التفتيش يوم كان فقهاؤها يتساءلون عن إذا كان للمرأة روح كما للرجل، إذن لطالب هذا البعض بإحالته إلى آلات تعذيبها.

وعند هذا الفاصل بين المرحلتين الزراعية والرعوية، يستحسن بنا أن نتناول ولو باقتضاب شديد بعض الشواهد التاريخية والأثرية والدينية على زعامة المرأة في المرحلة الزراعية دعماً للأدلة اللغوية.

الحبوب وصهريج الماء وحفرة التخزين ومخزن الغلال. كما يمتد أثرها إلى المدينة في السور والخندق، وفي كل الساحات الداخلية في المبني، من الردهات إلى الرواق».

«فالبيت والقرية وفي نهاية المطاف المدينة، ما هي إلا صورة مكبرة للمرأة. وإن المبني البدائية القديمة، والمنازل والحجرات والقبور، كانت عادة مستديرة كالإنساء الأصلي الذي وصف في قصص الإغريق بأنه صنع على نمط ثدي افروديث». (المدينة على مر العصور ج ١ ص ٢١).

وأرى أن ثمة علاقة رمزية أيضاً بين نشأة القبة العربية وبين الثدي، قبل أن يصنع ذلك الإناء الأصلي بآلاف كثيرة من الأعوام. فالقبة جاءتنا إرثاً شرعياً عن الأكواخ الطينية الخشبية المستديرة التي عشر عليها في أغوار الأردن منذ الألف (12) ق.م فظل ذلك النمط سائداً في بلاد الشام حتى الألف (8) ق.م، ولا نزال نشاهد نماذج منه في بعض الأرياف السورية حتى الآن.

ثانياً - حول زعامة المرأة في المرحلة الزراعية :
لقد صعدنا في الحلقات السابقة بكثير من الثقة والطمأنينة إلى ما قبل التاريخ

1 - يؤكد المؤلف أن البشرية لم تنتج القوت (الزراعة وتأهيل الحيوان) قبل الألف(8) ق.م، وأنه قد نضجت في بلاد الشام بين الألفين (69) ق.م جملة من التحولات الحضارية قبل أي مكان آخر في العالم. ولكنه يقرر بأنه لم يلمس أسبابها وتطوراتها إلا بقدر ضئيل جداً (ص70). وهذا الجهل يشير إلى أن أصول هذه التحولات الحضارية، وفي مقدمتها إنتاج القوت قد جاءتها من الجزيرة العربية الأم.

2 - لا حظ المؤلف : «اختفاء مفجعا للحضارة النطوفية في بلاد الشام بين الألفين (89) ق.م وقيام حضارة جديدة على يد أناس جدد» (ص 42-43). وهؤلاء الناس الجدد الذين لم يعرف (جاك كوفان) من أين قدموا، كانوا في الحقيقة من الجزيرة العربية.

3 - كانت الغالبية العظمى من الدمى التي عثر عليها في بلاد الشام حتى الألف(8) ق.م، حيوانية، مما يشير إلى عبادتها. وكانت إحدى الدمى الإنسانية تمثل زوجا بشريا متناسق الأعضاء ورشيقها في وضع عاطفي، مما يشير إلى تقديس الجنس على رأي المؤلف. (ص. 150-152).

فبتقصي الآثار المكتشفة في وادي الرافدين والنيل وفي بلاد الشام (سوريا + الأردن + فلسطين)، قد تبين لي أن الجزيرة العربية هي مهد الحضارات التي نشأت في هذه المناطق الثلاث. فمع الموجات البشرية التي طردها جفاف ما بعد العصر الجليدي الأخير من ربوع الجزيرة العربية منذ الألف(9) ق.م، قد تسرب إلى المناطق المجاورة لها، ألف عام بعد ألفٍ صناعتا الزراعة واستئناس الحيوان مصحوبتين بعبادة المرأة الأم، ثم تلتها صناعة الرعي مع عبادة الكواكب. ولما كانت بلاد الشام هي الامتداد الطبيعي والبشري والغذائي والثقافي المباشر للجزيرة العربية على مدى التاريخ، سأعتمد هنا كتاب (الوحدة الحضارية في بلاد الشام)، لمؤلفه (جاك كوفان) ترجمة قاسم طوير. فمؤلفه أستاذ التاريخ في جامعة (ليون) الفرنسية، قد ساهم بالحفريات الأثرية التي أجرتها إحدىبعثات الفرنسية في المربيط وتل الشيخ حسن، حتى عام 1974 - كما أن تواريخ الآثار المكتشفة بين الألفين (6-12) ق.م، قد تم تحديدها جميعا بطريقة تحليل الفحم(14) الحديثة الفائقة الدقة، مما يعطي ذلك الفاصل الزمني بين المرحلتين الزراعية والرعوية موضوع اهتماماً.

الثانية التي ظهرت فيها أدلة على وجود الزراعة، فقد ظهرت فيها دمى بشرية، وأي نسائية. (هامش ص 168 + ص 154) وهذا يشير إلى حتمية سيادة المرأة في المرحلة الزراعية.

7 - شوهد في السوية الرابعة من المريبيط لعام (7650 - 7300) ق.م. قبر شبه بيضوي منتخف الشكل يستند إلى جدار. وكان الهيكل العظمي لصاحبه في حالة القرفصاء، في وضع مماثل لوضع الطفل في بطن أمه (ص 66). وهذه الطريقة في دفن الموتى تشير إلى طقوس دينية ترتبط بالربة الأم في ظل مقوله مفترضة: (من البطن الحاني إلى البطن الحاني يعود)، مصداقا لما قرره (لويس ممفورد) آنفا.

وهذه الأدلة التاريخية والأثرية على قلة ما سردنا منها وإيجازه، تبين لنا أن المرأة الأم كانت زعيمة المرحلة الزراعية في الجزيرة العربية. فاستمرت في فرض عبادتها وقداستها على الرجل بعد نزوحها إلى بلاد الشام حتى أوائل المرحلة الرعوية. وهكذا كان من طبيعة الأمور أن تتولى هي، وليس الرجل إبداع ما يلزم مرحلتها الزراعية في الجزيرة العربية من وسائل التواصل الإيمائي

4 - ظهرت بعض الدمى النسائية في أوائل الألف (8) ق.م، لا تناسق في أعضائها ولا رشاقة، وكانت ذات سمات مشتركة من حيث التجسيم الكامل والواقعي لجسد المرأة العاري، مع ظاهرة تضخيم الورك والمؤخرة. وقد أطلق على هذا النموذج الذي شاع في بلاد الشام طوال ألفي عام تارة اسم «الربة الكبرى» وتارة اسم «ربة الزراعة» (ص 152-153). وهذا يشير إلى انتشار عبادة المرأة مع إنتاج القوت من الجزيرة العربية إلى بلاد الشام.

5 - بدأت التماضيل الأولى للرجل بالظهور حوالي (7000) ق.م، إلا أن الغلبة كانت للدمى النسائية طوال الألفين (7-8) ق.م، وهذا يشير إلى أن سلطنة الرجل لم تبدأ في بلاد الشام إلا بعد ذلك التاريخ على أيدي الرعاة الذين بدؤوا بالاستيطان فيها حوالي (6200) ق.م. (ص. 152 + 158 + 166). مع التذكير بأن الحياة الرعوية بدأت في الجزيرة العربية منذ الألف (10) ق.م. بترجمي شديد.

6 - لاحظ العالم الأثري (لوروا غورهان) إن السوية الأولى في (تل الأسود) قرب دمشق الخالية من الزراعة لم تحتو إلا على دمى حيوانية. أما السوية

ولكن الأساطير السومرية والبابلية والكنعانية والمصرية توضح لنا كثيراً من ضروب العلاقة بينهما في تلك المجتمعات الزراعية. إيجابيتها وسلبيتها على حد سواء. فأسطورة التكوين البابلي (الإينوما إيليش) مثلاً، تلخص مراحل النزاع بين الرجل والمرأة في أقسى صوره وأوضحتها. فبمعرض الخلاف بين الإله (ابسو) وزوجته (تعامة) بصدق طيش أبنائهما الشباب، تنتصر لهم ويقوم أحدهم (ايا) بقتل أبيه غيلة. وذلك يرمي إلى تفوق المرأة المؤلهة على الرجل في أوائل المرحلة الرعوية في المجتمع الزراعي. ولكن يتم قتل (تعامة) ذاتها فيما بعد على يد أحد أحفادها، البطل (مردوخ) ذو المواقف الرعوية، في معركة رهيبة يستخدم فيها كل منها ما أنتجته مرحلته من الأسلحة، وبما يتواافق مع خصائص جنسه. وتنتهي الملحمة بقيام (مردوخ) بتنظيم الكون الجديد على أساس جمالية أخلاقية. وهذا يشير إلى قيام الرجل الراعي بانتزاع السيادة من المرأة بقوته وخبرته وحكمته. وروحه الشاعرية.

أما النزاع بين الرجل والمرأة في أسطورة (جلجامش) فتأخذ طابعاً أقل حدة بين الآلهة (عشтар) ربة الحب، و (جلجامش) البطل. ينتصر هو عليهما في

التمثيلي على وجه ما بيناه في الحلقة السابقة.

ولو أن الرجل كان هو زعيم المرحلة الزراعية وصاحب حروفها، لكان فرض عليها عبادته وتقديسه كما فعل في مرحلة رعوية لاحقة.

وحكاية ترويض (أنكيدو) عشير الوحش في أسطورة (جلجامش) على يد إحدى غانيات معبد بابل ذات الحضارة الزراعية، يمكن اعتبارها رمزاً تراثياً موروثاً على ترويض الرجل الغابي على يد المرأة الزارعة في الجزيرة العربية الأم.

الحلقة التاسعة :

حول سيادة الرجل في المرحلة الرعوية

أولاً - في المجتمعات الزراعية :

لقد عرضنا في الحلقة السابقة أن
الدمى النسائية المقدسة في بلاد الشام
طلت هي الغالبة طوال الألفين (9 - 8) ق.
م، على الرغم من ظهور التماشيل الأولى
للرجل عام (7000) ق.م.

فهذه الظاهرة من التزاحم بين تماثيل الرجل والدمى النسائية على منصات القداسة طوال ألفي عام تشير في حد ذاتها إلى واقع النزاع بينهما على الزعامة في المجتمع الزراعي.

أبناء شعوب المنطقة العربية يتوارثونها على صفحات الذاكرة جيلاً بعد جيل قبل التدوين بآلاف كثيرة من الأعوام.

ثانياً - في المجتمعات الرعوية :

أما الرجل في المجتمع الرعوي، فإنه لم يجد أي صعوبة في انتزاع الزعامة من المرأة خلال هذه المرحلة الجديدة التي صنعتها بنفسه لنفسه.

فالأسلحة التي شرعتها في وجه المرأة الأم المؤلهة لم تقتصر على قوته الجسدية وخبرته القتالية وملكيتها للقطعيف فحسب، وإنما تعدتها أيضاً إلى سلاح روحي جديد أشد حسماً، هو عبادة القمر مفتاح العادات السماوية.

فالقمر هو أعظم كواكب الليالي ونجومها حجماً وأكيسها استدارة وأسطعها ضوءاً، وأبهاهما طلعة وأشدّها ارتباطاً بمصيره.

نوره في مظلمات الليالي يشيع الأنس في نفوس رعاة الجزيرة العربية في بادية موحشة لا أنس فيها ولا أمان ولا اطمئنان.

مساره على فلكه في السماء يحدد لهم مواقعهم على الأرض، فيعرفون صريح مسالكهم في متاهات صحاريها وبواديها.

الجولة الأولى بقتله الثور السماوي الذي خلقه أبوها (أنو) للقضاء عليه جزء رفضه الزواج منها وتحقيرها. وتنتصر هي في الجولة الثانية بمعونة الآلهة بإيمانة صديقه (أنكيدوا)، فيهيم على وجهه في الغابات حزناً عليه.

وتتفرد أسطورة التكوين الكنعاني عن غيرها بإبراز ظاهرة الوفاق بين المرأة والرجل في مجتمع زراعي عريق. فالصراع هنا يقع بين (بعل) رب المطر والصواعق والسحب، وبين (يم) إله النهر، فتنحاز (عناء) ربة الحرب والدمار والخصوصية الكونية لحبيها وسيدها (بعل). وتنتهي الأسطورة بزواجهما السعيد.

وقريب من ذلك ما جاء في أسطورة التكوين الخاصة بمدينة (نيبور) السومرية التي تحكي قصة غرام الإلهة الشابة (ننليل) بالراعي، (أنتيل). يفتنها ويعتدي عليها فيستولدها إله القمر (نانا). ثم يفر منها إلى العالم السفلي، فتحلق به ويستولدها آلهة أخرى لذلك العالم.

فهذه الأساطير إنما هي نماذج خاصة من المستحاثات الأثرية التي استطاعت بأسلوبها الشاعري الرمزي أن توصلنا بمجمل العادات والتقاليد والروابط الاجتماعية والعقائد والأفكار التي كان

في مساره ووجوهه وأهلته.
وفوق ذلك كلّه، كانت عبادته هي
الأدعى لتوحيد عقائد رعاعة الجزيرة
العربية وقيمهم الجمالية والأخلاقية
ومثلهم العليا، يستوحونها من خصائصه
وصفاته أني حلو وأني ارتحلوا.

ولقد كان له في غور الأردن بأريحا
أعظم معابده، يحج إليه الناس من سائر
المناطق العربية، على ما يؤكد (ويل
ديورنت) في قصة الحضارة الحديثة. كما
كانت أرض سيناء تدعى (أرض القمر).

ثالثا - حول أبعاد الصراع بين المرأة والرجل في اللغة العربية :

لئن أولينا هذه العلاقة الجدلية بين
الذكرة والأنوثة، في هذه الحلقة التي
قبلها، شيئاً من الاهتمام في بحثنا اللغوي
هذا، فذلك لأنّها تشكل واحداً من أعمق
الجذور الثقافية التراثية في «الشخصية
العربية». ولقد كان لهذه العلاقة الجذر
بينهما أبعاد أيضاً في اللغة العربية، لا
يزال الكثير منها خفياً لم يحظ بما
يستحقه من اهتمام علماء اللغة العربية
وفقهائهم.

لقد ساهمت التقاليد الرعوية على مدى
آلاف الأعوام في ترسیخ سيادة الرجل
على المرأة، ولكن الإنسان العربي قد

أهلته المتكررة تحديد لهم شهورهم
وأعوامهم، فيعرفون مواقعهم الصحيحة
في تيار الزمن.

وجوهه المتغيرة في كل ليلة تعين
لهم أيام الأسبوع. فكان الأسبوع سبعة
أيام بما يعدل ربع الشهر القمري. ثم
كانت الحروف العربية فيما بعد(28)
حرفاً بعد عدد منازله. أربعة عشر منها
قمرية تظهر معها (لام) التعريف بعدد
منازله الظاهرة، وأربعة عشر شمسية
تختفي معها (لام) التعريف بعدد منازله
المخفية.

ولقد عبدوا القمر باسم الإله (سين)
منذ الألف(9) ق.م. فقد عثر في السوية
الثالثة من المربيط في سورية (8000 -
7600) ق.م. على أحد جدران المسكن(47)
طبقة سميكة من الطين الأصفر على هيئة
هلال، بطول(60) سم وعرض(20) سم
(الوحدة الحضارية في بلاد الشام
ص(142+51)). وهذا يشير إلى أن عبادة
القمر قد نزحت من الجزيرة العربية مع
النازحين.

وهكذا لم تستطع المرأة أن تصمد في
المجتمع البدوي أمام هذا المنافس الجديد.
 فهو الأروع جمالاً والأسمى مقاماً
والأقدس مظهراً والأنقى بشرة والأكثر
نجدة والأشمل رعاية، والأصدق مواعيد

أخت - عالم، عالمة..). ما سلم من هذا التسلط الذكوري على درجات القرابة المؤنثة سوى لفظة (أم)، وذلك لأنها جاءتنا إرثاً عن مرحلة زراعية أعرق في

القدم من المرحلة الرعوية كما أسلفنا.

أما درجة القرابة (كنة) مؤنث (صهر) فهي وإن استقلت عنه بكلمة خاصة، فسلمت بذلك من التسلط الذكوري ظاهرياً، إلا أن العربي قد أبدعها في المرحلة الرعوية خصيصاً لتحديد موقعها الثانوي في أسرتها الجديدة، بتسليط ذكوري أشد إحكاماً وتحكماً.

لفظة (صهر) بحروفها الرعوية قد اشتقتها العربي من الانصهار، لمعاني التفاعل والتمزج، عنوان حيوية وفعالية. وذلك على العكس من لفظة (كنة)، المنتهية بنون (الإناث) وتاء (التأنيث): فهي لمعاني الرقة والضعف والاستكانة والاستقرار، عنوان خفاء وتبغية. وذلك بأفضلية موقع الصهر في أسرة حميّة التي ينصلح فيها، على موقع (الكنة) في أسرة حميّها التي تستكين فيها ولا تتنصر.

رواسب رعوية ذكورية لا تزال ماثلة في تقاليدنا وعاداتنا وعواطفنا وروابطنا، لم يتمحر المجتمع العربي الرعوي منها حتى الآن إلا قليلاً.

كرس هذه السيادة أبداً الدهر في لغته بالكثير من قواعدها وأصولها المحكمة، كما في الأمثلة التالية:

1 — لقد اختار النون لرقتها وشاعريتها، وما يوحّيه صوتها في نهاية المصادر من معاني الخفاء والاستكانة والاستقرار (كما أسلفنا في حلقة سابقة)، فالحقها بكلمة (أب)، ولم يلحقها بكلمة (أم). وذلك ترسيحاً لقاعدة إلحاد الأبناء بالأباء في المجتمعات الرعوية وليس بالأمهات، على العكس مما كان حالهم وحال الأزواج في المرحلة الزراعية.

2 — كما الحق هذه (النون) الأنثى الرقيقة المستكينة في نهاية الأفعال والأسماء والحرروف وجعلها علامة للإناث: (سمعن - حدثهن - عنهن..)، وذلك بمقابل ما جعل (الواو) ذات الفعالية والاستمرار (كما أسلفنا في حلقة سابقة)، ضميراً للذكور: (سمعوا).

3 — ثم اختار (التاء) الضعيفة الشخصية، ذات الصوت الباهت، لا صفاء فيه ولا أناقة ولا رنين ولا فعالية، ولا ما يوحّي بآية مشاعر إنسانية، فجعلها علامة للتأنيث. وقد الحقها بالأسماء المذكورة من درجات القرابة وسواتها، كنائية عن تقدم المذكر على المؤنث وأفضليته: (زوج، زوجة - ابن - إبنة -

للأصوات والكلمات والصيغ والتركيب إلا بمقدار ما يتعارف المجتمع على أنها رموز دلالات).

والأستاذ محمد المبارك يتساءل في كتابه (فقه اللغة) الذي ألفه في شبابه بعد تخرجه من جامعة السربون الفرنسية. «أليست هذه الألفاظ أشبه بالرموز الرياضية؟ أليست أشبه بالنقود التي يرمز بها إلى القيم؟». ص(15).

ولكنه قد رجع عن رأيه هذا في كتابه «خصائص العربية» فيقول:

«.. كما إني وجدت تقابلاً عجيباً وتشابهاً واضحًا بين اللغة العربية والطبيعة.. انكشف لي ذلك تدريجياً في أثناء سيري في البحث اللغوي خلال سنتين طويلة...». ص(228). ثم يعترض صراحة فيقرر:

«إنني أقول في غير تردد : أن للحرف في اللغة العربية إيحاء، ويثير في النفس جواً يهوي لقبول المعنى ويؤدي إليه ويؤدي به». ص (260).

فكما يستطيع الباحث أن يكتشف العلاقة الفطرية الكائنة بين أصوات الحروف العربية ومعانيها، لابد له أن يتمتع برهافة سمع وشفافية مشاعر، وتذوق أدبي رفيع، ومعاناة طويلة مع تلوّنات أصوات الحروف العربية، كما

الحلقة العاشرة:

الحروف الرعوية ومعانيها

أولاً – حول صعوبة استحياء معانيها :

لقد تحدثنا في حلقة سابقة عن كيفية استخلاص معاني الحروف الزراعية من خصائصها الإيمائية التمثيلية. وما أحسب أن القارئ قد اعترضته أي صعوبة في الاهداء إلى معانيها، بمجرد الانتباه إلى الحركات التي ترافق النطق بأصواتها.

أما استخلاص معاني الحروف الرعوية من صدى أصواتها في النفس، فهو يتطلب شروطاً خاصة لابد من توافرها في الباحث عنها.

فمعظم دكاترة اللغة العربية وطلابهم يجزمون اليوم بأن الحرف العربي لا معنى له. وأن الكلمة العربية مجرد مصطلح لا علاقة لمعناها بأصوات أحرفها. وذلك تأثراً منهم بالمدارس اللغوية الغربية جيلاً يعلم جيلاً، فلا تلحظ أبصارهم دلالات طرق النطق بأصواتها ولا تنتبه أسماعهم إلى صدى أصواتها في النفس.

يقول الدكتور صبحي الصالح في كتابه (دراسة في فقه اللغة): (لا قيمة

متطرفة، كما لحظنا ذلك في معاني حرف (اللام)، في الحلقة السابقة.

نهج موضوعي يتواافق مع مراحل تطور اللغة العربية. ولذلك من الحال على الباحث أن يهتدى إلى معاني أي حرف إذا لم يلتزم بهذا النهج، ولو اهتدى إلى بعضها عفو رهافة سمع وشفافية مشاعر وتذوق أدبي رفيع ومعاناة طويلة مع أصوات الحروف، كما وقع لابن جني والعاليل والأرسوزي والبارك وابن زيدان، وغيرهم كثير.

ثانياً - فما هي الحروف التي تعنينا وما معانيها؟

اختصاراً شديداً للبحث سنكتفي باستخراج معاني الحروف الرعوية وما بقي من الحروف الزراعية التي يكثر دورانها في حروف المعاني، وكذلك ما يدخل منها في تراكيب حروف المعاني الهامة الكثيرة الاستعمال.

وتحذر الإطالة سنكتفي بالكشف عن بعض معاني كل حرف منها مما يفيدنا في معرفة معاني حروف المعاني التي تدخل في تراكيبها.

لقد استخرجنا في الحلقات السابقة معاني الحروف الغابية جميعاً (الهمزة والألف اللينة والواو والياء)، ومعاني ثلاثة من الحروف الزراعية (الفاء والميم

وقد للأستاذ المبارك. أما الذي لا يتمتع بالحدود الدنيا من هذه الشروط جميعاً، فسيجد مسألة معاني الحروف العربية مجرد توهם في أذهان القائلين بها لا رصيد لها من حقيقة.

وعلى الرغم من ذلك يمكن التخفيف عن الباحث أو القارئ من هذه الصعوبات بمعرض التفصي عن معاني الحروف العربية وذلك باتباع النهج الذي عرضناه في الحلقة (الثالثة)، وملخصه:

أ - البحث مسبقاً عن الخصائص الإمامية والإيحائية في الحرف المعنى.

ب - الرجوع إلى المعاجم وانتقاء الجذور الألصق معان بالطبيعة، مما يشارك هذا الحرف في تراكيبها.

ج - اختيار المعنى الحسي لكل جذر منها، دون المعنووي. فالالأصل في الجذور ومعانيها هو الفطري الحسي، وليس المعنووي المجرد الذي جاء لاحقاً في مراحل لغوية متطرفة.

وهكذا نستطيع بسهولة أن نستخلص المعاني الأصلية التي أبدع الحرف العربي للتعبير عنها ابتداءً، أو التي وظفها للتعبير عنها في مراحل لغوية

اللحم وبشقه وبضعه بمعنى (شقه) بعـ الشيء وبذحـه وبعـ البطن وبقره وبحر الأرض بمعنى (شقها). بـحـث بـخـص عـينـه (فقـأـها) .».

٢ - حرف (الباء) :

صوته الباهت المتماسك، يوحى
بملمس بين الطراوة والليونة، وكأن
الأنامل تجس وسادة من قطن، أو كأن
القدم الحافية طأ أرضا من الرمل الندى.
ولا يوحى صوته بأي إحساس حسي
آخر، أو بائنة مشاعر إنسانية.

كان لمعاني الرقة والضعف والأشياء التافهة بما يتوافق مع صدى صوته في النفس(18) مصدرا من أصل (100) مصدر حذر تبدأ به. منها:

«تبتب (شاخ). التبن. تخ. التراب.
تفتف (اتسخ بعد نظافة). التف (وسرخ
الظفر) - تفه. تك الرجل (حمق). التلب.
التبن».

وكان في المصادر التي تنتهي به (23) مصدراً لهذه المعاني من أصل (97) مصدراً منها.

«بلغت (انقطع عن الكلام حياء). خبت. خلت. سكت. الشخت (الضامر خلقه). صمت. قيلت فلان (فسد وقل لحمه). الفتات. نات (تمايل لضعف أو نعاس).

واللام) وبقي منها (الثاء والذال).
لذلك سنعمد إلى استخراج معاني
الحروف التالية :
«الباء - الثاء - الذال - العين -
الكاف - النون - الهاء».

١ - حرف (الباء) :

يبدأ تشكيل صوت هذا الحرف بضم الشفة على الشفة بشيء من الشدة حبسا للنفس. وبانفراجهما الفجائي عن بعضهما، ينفتح الفم واسعاً، ويحدث صوته الانفخارى:

وبذلك كانت له خصائص إيمائية تمثيلية مستمدّة من طريقة التلفظ بصوته. فكان ثمة (86) مصدراً من أصل (292) مصدراً جذراً تبدأ به معاني الانبعاث والظهور والاتساع والامتلاء، بما يتوافق مع ظاهرتي انفراج الشفتين وانفتاح الفم عند خروج صوته.

أما خصائصه الإيجابية التي تعنينا، فهي مستمدة من طبيعة صوته الانفجاري. فكان ثمة (53) مصدراً جذراً تبدأ به لمعاني الحفر والشق والبعج والقطع والشدة، بما يتواافق مع صدى صوته الانفجاري في النفس، منها:

«بأر البئر (حفرها). بتّ الشيء وبتره
وبتعه وبتكه وبتله وبركعه، وبرشق

فيه لين وطراوة، أما مع (الذال)، فيسمع لاحتاكاه ذبذبة صوتية عالية. وهكذا على الرغم من تقارب مخرج صوتي هذين الحرفين وتطابق طريقي التلفظ بهما ملتوغين، فإن ثمة فروقاً أصلية بينهما على مثال ما في الأنوثة والذكرة من تقارب وتطابق، ومن فروق أيضاً.

1 - فمخرج صوت (الثاء) أقرب إلى جوف الفم من مخرج الذال. وذلك كنایة عن ظاهرتي الخفاء والخشمة في الأنوثة، وعن ظاهرتي البروز والظهور في الذكرة في المجتمع الرعوي.

2 - أما التناقض بينهما، فهو أشد ما يكون في إيحاءاتهما الصوتية عبرها عن المعاني. وذلك على مثال ما كان التناقض بين الأنوثة والذكرة على أشدّه في وظائفهما ومهامهما في المرحلة الرعوية. فإذا كان صوت (الثاء) الملتوغة يدغدغ طرف اللسان بكثير من المرونة والطراوة، ويوحّي بالدمامنة والملمس الدافئ الوثير، فإن صوت (الذال) الملتوغ أشدّ توتراً وأذعاً مذاقاً وأقوى حرارة وأوخر ملمساً. ليشف بذلك صوت كل حرف منها عن خصائص الجنس الذي يمثله.

الوتاوت (الوساوس). فكانت (الثاء) من ضعف الحروف شخصية، لتأصل بذلك خاصية الضعف في معانيها.

3 - (الثاء والذال) بين الأنوثة والذكرة :

لقد أبدعت المرأة الأم أصلي لثغتيهما في المرحلة الزراعية عبرها إيمائياً تمثيلياً عن جنبي الأنوثة والذكرة، كما ذكرنا سابقاً. فهما حرفان لش gio، ليس ثمة في اللغة العربية حرفان اثنان أصدق منهما مخرج صوت، ولا أكثر تطابقاً في طريقة التلفظ بهما. وهذا ما حدا بالدكتور إبراهيم أنيس إلى التوهم بأنه: «لفرق بين صوتي (الثاء والذال) إلا الهمس بالثاء والجهر بالذال».

فكلاهما يتشكل صوته عبر ذات المراحل الثلاث التالية:

أ - يشق طرف اللسان الأسنان العليا قليلاً عن السفلى، وإذا فخم صوت (الذال) بربز طرف اللسان من بينهما.

ب - يندفع النفس بين الأسنان العليا وطرف اللسان بشيء من البعثرة والتشتت، ولكن بفارق بينهما.

فمع الثاء يندفع النفس ببطء ورخاؤه، ومع الذال بسرعة وشدة.

ج - يسمع لاحتاكاك النفس بالأسنان العليا عند خروجه مع (الثاء)، حفيـف

المصادر، كما لحظنا في الحلقة
(الثالثة). منها:

«أنت (لان)، ومنها الأنوثة والأنثى.
البُهْتَة (البشر وحسن اللقاء). رعث
الصبي أمه (رضعها). الطمث. الرفت.
خرشت المرأة (ضخمت خاصرتها
واسترخي لحمها). خنت الرجل. دمث.
ماتت الأرض (لانت). داث ديثا (لان
وسهل).

ملاحظة :

لئن كان لمعاني البعثرة والتخليط
والجمع العشوائي (44) مصدراً جذراً
تنتهي بالثاء، إلا أننا لم نعثر فيها على أي
مصدر يدل معناه على الشق والانفراج
والسيلان. وذلك لأن طرف اللسان مع
(الثاء) في نهاية الكلمة يستقر في وضعه
الأخير بين الأسنان العليا والسفلي، فلا
تنفرجان عن بعضهما البعض.

ب - حرف الذال :

وكما لحرف الثاء، فإن لحرف (الذال)
خاصيتين إيمائيتين وواحدة إيحائية،
لثلاث فئات من المعاني.

1 - لمعاني الاهتزاز والاضطراب وشدة
التحرك بما يتواافق مع ظاهرة الاهتزاز
في صوته. فكان لها (11) مصدراً من

فماذا عن هذه المزاعم على واقع
المعاجم اللغوية ؟

أ - حرف الثاء

لهذا الحرف خاصيتان تمثيليتان
وواحدة إيحائية، لثلاث فئات من المعاني:
1 - لمعاني الشق والانفراج والسيلان بما
يتواافق مع ظاهرة شق الأسنان العليا
عن السفلي بطرف اللسان، عند بداية
تشكل صوته. وكان لها (17) مصدراً
تببدأ بالثاء من أصل (94) مصدراً
جذراً. منها:

«الثائي (الفتق). ثعرر الأنف (تشقق).
ثقب الشاة (ذبها). الثغر. الثلم...».
2 - لمعاني البعثرة والتشتت والتخليط،
بما يتواافق مع ظاهرة بعثرة النفس
عند خروج صوته وكان لها (17)
مصدراً تبدأ به. منها:

«ثرثر. ثرد الخبز وثمامه (فته). ثر.
ثط (خف شغر لحيته). ثعر (كثرت
بنوره). الثلچ. ثار (هاج وانتشر)...».

3 - لمعاني الرقة واللين والبلاضفة
ومتعلقات الأنوثة، بما يتواافق مع
صدى صوته في النفس. وكان لها (21)
مصدراً تنتهي بالثاء من أصل (83)
مصدراً جذراً. فصوت (الثاء) الأنثوي،
إنما هو أوحى بخصائصه في نهاية

الحلقة الحادية عشرة: الباقي من الحروف الرعوية ومعانيها

لقد استخرجنا في الحلقة الرابعة معاني (الهمزة والألف والواو والياء)، وفي الحلقة الخامسة وظائف (الفتحة والضمة والكسرة)، وفي الحلقة السادسة معاني (الفاء والميم واللام)، وفي الحلقة السابعة معاني (الياء والتاء والثاء والذال). وبقي علينا أن نستخرج في هذه الحلقة معاني حروف (الكاف والنون والهاء والعين). وهذا كل ما يلزمنا لمعرفة معاني أهم حروف المعاني وأصول استعمالها.

أولاً - حرف الكاف :

هو عند العلالي والأرسوزي (الاحتراك). وهذا صحيح.

ففي الواقع، إذا لفظ صوته ممطوطاً بعض الشيء، ومحفوتاً به قليلاً، ومضغوطاً عليه بلا تفخيم، يخرج النفس بين اللهاة وسقف الحنك بشيء من الاحتراك، بما يحاكي صوت احتراك الخشب بالخشب. ولعل العربي قد اقتبسه عفو الفطرة من صوت هذا الحدث في الطبيعة.

أصل (58) مصدراً جذراً تبدأ به، منها:

«ذَبَّ (لم يستقر في مكان). ذبح. ذَلَّ (مشى مسرعاً). ذَقَّ الطائر (أسرع). ذمل البعير (سار سريعاًلينا). ذهب. الذَّنْبُ والذَّدِيلُ (الظاهرة الذبذبة في تحركهما).

2 - معاني البعثرة والانتشار بما يتوافق مع بعثرة النفس في صوته المثلوغ وكان لها (11) مصدراً.

منها : «ذرَّ الأرض (بذرها). ذراه (فرقه وبده). ذفر المسك (اشتدت رائحته وانتشر). ذراه ذروا (طار في الهواء وتفرق). ذاع الخبر. ذرف الدمع. ذرح الشيء في الريح (ذراه). ذاب الشحم.

3 - معاني الشدة والفعالية والقطع بما يتوافق مع موحيات صوته وكان لها (19) مصدراً منها:

«ذَأْمَهُ (طرد) الذئب. ذَحَّ الشيء (دقه وشقه). ذَرَبَ السيف (صار قاطعاً). الذراع. سم ذعاف. الذكورة. ذلق اللسان. ذيأه (قطعه). الذهن (الفهم والعقل والقوة). ذمه اليوم (اشتد حره). ذئر (أنف وغضب). ذمر (غضب)».

ثانياً - النون :

يقول عنها العلالي بأنها «للتعبير عن البطون في الأشياء». ويقول الأرسوزي بأنها: «للتعبير عن الصميمية». وكلاهما صحيح.

وهذان المعانيان المتقاربان في (النون) قد تأتيا من طبيعة صوتها الهيجاني الذي ينبعث من الصميم للتعبير عفو الفطرة عن صميم الذات.

على أن (النون) لها معانٍ أخرى تتوافق مع خصائصها المتأتية من طريقة التلفظ بصوتها في أول المصادر وفي آخرها. ولكننا حذر الإطالة سنتصر هنا على ما يفيدنا في حديثنا الم قبل عن معاني حروف المعاني ووظائفها.

أ - فإذا لفظت (النون) في مقدمة المصادر بشيء من الشدة، أوحى صوتها بالانبثق من الصميم، كما قال الأرسوزي. فكان لهذه المعاني (29) مصدراً تدل على أصوات، و (120) مصدراً للانبثق من الداخل، وذلك من أصل (368) مصدراً جذراً. كان منها للأصوات:

«نَأْجُ الْبُومَ - نَبْحٌ - نَحْبٌ - نَخْمٌ - نَخْفٌ - نَشْجُ الْبَاكِيِّ - نَعْرٌ - نَعْقٌ - نَغْمٌ - النَّقِيقُ - نَهْقٌ - نَهْتُ الْقَرْدَ - نَهْمُ الْأَسْدَ - نَاحْتُ الْحَمَامَ...».

وعلى الرغم من تنوع خصائص هذا الحرف وكثرة معانيه، فإنه لا يعنينا منها بمعرض الحديث عن حروف المعاني إلا خاصية الاحتراك. فكان لهذا المعنى (7) مصادر فقط من أصل (186) مصدراً جذراً تبدأ به بنسبة ضئيلة لا يعتد بها لتقرير خاصية الاحتراك في صوته. أما المصادر التي تنتهي به، فكان منها (15) مصدراً لهذا المعنى من أصل (84) مصدراً جذراً بنسبة تقارب (18%)، مما يؤهل هذه الخاصية أن تكون واحداً من معانيه. منها:

«حَكَ - دَعَكَ - دَلَكَ - شَبَكَ - شَكَ الشَّيْءَ (لصق ببعضه ببعض). عَرَكَ الْجَلَدَ وَمَعَكَه (ذلكه) عَلَكَ. مَحَكَ (لَجَ في المنازعَة)...».

ولقد استخلص العربي معنى التشبيه في حرف الكاف، من خاصية الاحتراك في طريقة التلفظ به، ومن صدى صوته في النفس.

فالتشبيه لغة هو (الممثل) كما في (رغيفك كرغيفه) وهو عند البيانيين، (إلحاق أمر بأمر لصفة مشتركة بينهما): (زيد كالأسد). وكل المعنيين يتطلبان إجراء المطابقة بين صفاتهما الحسية أو المعنوية المشتركة بشيء من الاحتراك المادي أو الذهني.

الحسن القد والوجه). الوسن (النعاش..). كما كان منها أيضاً (34) مصدراً لمعاني الإقامة والاستقرار والخفاء، بما يتوافق مع صدى صوتها المرقق المنعم منها:

«أتن بالمكان وبن به ودجن به وسكنه ورزن به وعدن به وعمن به وعهن به ومتن به ووثن به ووحن به بمعنى (أقام في المكان) – أكن الطائر ووكن (دخل عشه). أمن، الجفن (عطاء العين). جن (استتر). دفن – كمن – كن (استقر)...». وهكذا استحقت (النون) بجدارة أن تكون في نهاية الأسماء والأفعال والحرروف رمزاً (للإناث)، رقة وأناقة وخفراً وحشمة.

ثالثاً - حرف الهاء :

هذا الحرف يستمد معانيه العديدة من مصدرين اثنين:

أ - من طبيعة صورته في الاهتزاز أولاً، وفي التخريب ثانياً.

ب - ثم من طريقة التلفظ بصورته: إما مشبعاً مضغوطاً عليه، وإما باهتزازات رخوة، وإما مخففاً مرقاً مطموس الاهتزازات، وإما مخنخنا به.

وكل واحدة من خصائص هذا الحرف الست، كان لها ما يتوافق مع معانيها في المصادر التي تبدأ به بنسبة بلغت

وكان منها للانبعاث: «نبأ – نبت – نبع – نبغ – نتاً – نتج – نتح ونث ونحو ونشح بمعنى (رشح). نجد المكان ونشز بمعنى (ارتفع). نجم (طلع وظهر). نضج – نضخ – نطق – نظر – نزف – نفس المرأة (ولدت). نهد الثدي (برز وارتفع). والأفعال في هاتين الفتئتين من المصادر لازمة جميعاً. ب – وإذا لفظت النون بشدة وتواتر أكثر، أو حى صورتها بالنفاذ في الأشياء. وكان منها (45) مصدراً لهذه المعاني منها:

«نبث – نبش – نتل الشيء ونجثه (استخرجه). نخره – نحره – نخسه – نقب الجدار – نقد – نقر – نكت – نكز – نكف البئر (نزحها). نهش...» والأفعال في هذه المصادر متعدية جميعاً.

ج – أما صوت النون، في نهاية المصادر فيلقي هناك مخففاً مرقاً منعماً، بما يوحى بمعنى الرقة والأناقة والجمال ومحاسن النساء في المجتمع الرعوي، فكان لها (58) مصدراً من أصل (126) مصدرًا جذراً، منها:

«الحسن – الحنان – امرأة رزان (ذات وفاء وعفاف). زانه (جمله). الفسان (حدة الشباب). العين – الفن – لدن (كان ليينا) – مرن – لأن – الميسون (الغلام

- هزهز - الهوف (الريح الهوجاء). هاش القوم (هاجا). هاده هيدا (حركه).
الهياج...»

ب - وكان منها (31) مصدراً لمعاني التخريب والقطع والسحق والكسر بما يتوافق مع صوت (الهاء) ملفوظاً بشيء من الحدة، منها:

«هتم الشيء وهتاه وهتمه وهشمته وهجمه وهاضه وهضمته بمعنى (كسره أو حطمته). هبر اللحم وهذب الشيء وهذا بالسيف وهزبته بمعنى (قطعه). هرس الشيء وهمق السويق وهمك البطاطس بمعنى (دقه وسحقه). هد البناء وهدمه وهوه بمعنى (هدمه). هرد الثوب وهرضه (مزقه)...»

ج - وكان ثمة (77) مصدراً لمعاني الاضطراب والعيوب النفسية والعقلية الأخلاقية، بما يتوافق مع صوته رخوا مخنخنا به بعض الشيء. منها لمعاني الحمق فقط:

«الهبكـة - والهبنـك - والهبلـ - والهـتر - والهـجة والهـجـع - والهـيفـك - والهـلـس - والهـمـج والهـمـق والهـبـت والهـبـنـع والهـوب والهـوـج والهـوـس والهـوـك...» بعضـها لمعاني الحمق في الرجال وبعضـها الآخر للنساء.

وكان منها (42) مصدراً للتشوهات

(%)%. فكان هذا الحرف على هشاشة صوته من أقوى الحروف العربية شخصية.

وذلك لأن الإنسان العربي قد وجد في صوت (الهاء) مادة طيبة سهلة التكيف للتعبير بها عن معانٍ تتوافق مع طبيعتها في الاهتزاز والتخريب والاضطراب والخنخنة، مما لا يتوافر في أي مادة صوتية أخرى. فكان أن أكثر العربي من استعمالـه لهذه المعاني السلبية في متعلقات حياته الذاتية كما سيأتي: وعلى الرغم من أنه لا يعنيـنا من خصائص هذا الحرف ومعانـيه بمعرض حديثـنا المـقبل عن حروف المعـانـي سـوى خـاصـيـتي الـاهـتزـازـ والتـخـربـ في صـوـتهـ، فإنـناـ سنـستـعـرـضـ بـإـيجـازـ شـدـيدـ أـهـمـ خـاصـيـصـهـ الأـخـرـىـ بـمـعـانـيهـ. وـذـلـكـ خـاصـيـصـهـ الأـخـرـىـ بـمـعـانـيهـ. وـذـلـكـ لـلـكـشـفـ عـنـ النـزـعـةـ الفـنـيـةـ الـأـخـلـاقـيـةـ فيـ مـقـومـاتـ الشـخـصـيـةـ الـعـرـبـيـةـ الـثـقـافـيـةـ بـمـعـرـضـ تـعـاـلـمـهـاـ معـ أـصـوـاتـ الـحـرـوـفـ وـمـعـانـيهـ.

أ - فـكانـ ثـمـةـ (31) مـصـدـراـ منـ أـصـلـ (280) مـصـدـراـ جـذـراـ تـبـدـأـ بـهـ لـمـعـانـيـ الـاضـطـرـابـ الـارـتـعـاشـ وـالـتـحـركـ السـرـيـعـ بـمـاـ يـتوـافـقـ بـصـدـىـ صـوـتـهـ المـهـتزـ عـنـدـماـ يـلـفـظـ بـشـيـءـ مـنـ الشـدـةـ، منهاـ: «هـبـتـ الـرـيـحـ وـهـفـتـ - هـبـاـ الغـبـارـ - هـزـ

بإلشراق والظهور والسمو والفعالية. وذلك على مثال ما تتجمع أشعة الشمس في بؤرة عدسة بلورية مقرّبة، فيكون الضوء فيها أشد توهجاً وسطوعاً وحرارة.

وهكذا فإن تشكيل صوت (العين) يتطلب مهارة فائقة في التحكم بعصابات الحلق للمحافظة على ملاستها ودائريتها المناسبة، مما يجعل النطق بصوته عسيراً يستحيل إتقانه على غير الشعوب العروبية (السامية).

ومسألة تجمع ذبذبات النفس في بؤرة الحلقة في أول الحلق، تحاكى تجمع ذبذبات النفس في بؤرة الحلقة التي تشكلها الشفتان لإحداث الصفير. ليكون صوت (العين) هو نوع خاص من الصفير، ولكن في جوف الحلق، وليس خارج الفم.

يقول عنه الدكتور إبراهيم أنيس: «إنه من حيث انعدام حقيقته هو أقرب من الميم والنون واللام، ومن حروف اللين، الألف والواو والباء».

وأخذنا بهذا المنطلق من حيث المقارنة بين صوته وأصوات بعض الحروف، نستطيع أن نزيد على ذلك: فصوته من حيث صفاوته ونقاؤه، يمت بقراية مماثلة من حرف (الصاد)، ومن

والعيوب الجسدية بما يتواافق مع صدى صوت (الهاء) مخنخنا به أيضاً، منها: «تهبرس - تهطرس - هبع - هبرج - الهgef - هرجل - الهرشن - هرص - الهرطال - هرملت المرأة - الهالط - الهلقام - هنبع - هنبل - الهيف».

وهكذا يكون العربي قد جعل من (الهاء) مصححاً للأمراض العقلية وأقام فيه جناحاً خاصاً للأمراض الجسدية وعللها. وذلك على مثال ما جعل من (الخاء) حاوية قمامـة في بنيانه اللغوي الأنثيق.

رابعاً - حرف العين :

ما كان هذا الحرف هو آخر الحروف العربية التي سنتحدث عن خصائصها ومعانيها رأيت أن أتناول كيفية تشكيل صوته والمزيد من خصائصه بشيء ما من التعمق، لاعطاء القارئ ولا سيما المعنى بشؤون اللغة العربية فكرة أدق عن بعض أسرار حروفنا على واقع المعاجم اللغوية.

1 - حول كيفية تشكيل صوته

وطبيعته:

يتشكل صوت (العين) بتضييق مخرجه في أول الحلق على شكل حلقة ملساء، ومن ثم بتجميع ذذبذبات النفس في بؤرة هذه الحلقة، فيخرج صوته في جوف الحلق نقى ناصعاً، هو أوحى الأصوات.

منهما مع حرف (العين) في أي كلمة عربية.

وهكذا كان من الحال على حرف (العين) أن يحمي موحيات السمو والصفاء والنقاء في صوته من معاني الفجاجة والغلظة والاضطراب في الحروف التي تصاحبه. وشأن حرف (العين) في دنيا اللغة العربية كشأن العظاماء مع المعييات الرديئة النفوس في دنيا المجتمع على مدى التاريخ. (والكريم يخدع).

2 - حول معانيه :

أ - كان لمعاني الشدة والفعالية والصلابة والقطع، مما يتواافق مع صوت (العين) مشدداً عالي النبرة (125) مصدراً من أصل (664) مصدراً عثنا عليها في المعجم الوسيط وفي قاموس محظط المحيط لبطرس البستاني. منها (19) مصدراً للأسد و (18) للإبل والناقة، في مختلف أوصافهما. كما كان منها (10) مصادر بمعنى الصلب الشديد.

ب - وكان منها (115) مصدراً لعيوب نفسية وجسدية، مما يتتصف بالشدة والعيانية والظهور كما في: «العربدة - العهر - العة - العمى - العمه - العور - العار - العاهة - العيب».

ج - وكان منها (64) مصدراً لمعاني العظم والظهور والعلو، مما يتواافق مع

حيث فخامته فهو غير بعيد في قرباته عن حرف (الضاد). أما من حيث توتره الصوتي فهو الصدق طبيعة بحرف (الزاي).

وهكذا يبدو صوت العين كأنه مزيج من خصائص أصوات هذه الحروف جمِيعاً، له من اللام متانتها وتماسكها، ومن الصاد صفاوها وصقلها، ومن النون نقاوها وأناقتها، ومن الضاد فخامتها ونضارتها، ومن الزاي شدتها وفعاليتها، ومن الألف والواو والباء، لينها ومرونتها.

فكان حرف العين بذلك أكثر الحروف العربية أرستقراطية، قد جمع إلى نفسه خلاصة أخيار أصوات الحروف العربية من خصائص وإيحاءات معان.

لا يضرير هذا الحرف الأسطوري أن يسيء العرب استعماله فيكترون من استخدامه لمعان لا صفاء فيها ولا نقاء ولا فخامة ولا سمو، كما سيأتي. فذلك يرجع إلى مرونة مادته الصوتية أولاً، ومن ثم إلى نقاء هذه المادة. وهاتان الخاصيتان قد جعلتاه يختلف مع سائر الحروف العربية باستثناء حرف (الحاء والغين). فالحاء للتعارض الموسيقي بين صوتيهما. أما (الгин) فلتتناقض بين خصائصهما ومعانيهما. فلم يجتمع أي

- كان للعقد والربط وأدواتهما (17)
مصدرا منها:

«العكبة (العقدة في الحبل) - عرس
البعير (شد عنقه إلى ذراعه وهو بارك) -
العصام (حبل تشد به القربة وتحمل).
العقدة - عقصت المرأة شعرها - عقل
الدابة (ربطها) - عقط الرجل (شد
عماته). عكم المتاع (شده بثوبه) - عكا
ذنب الفرس (عطفه وعقده) - العلاط
(حبل يجعل في عنق البعير) - العنان.
العکال...».

- وكان للفتل والدوران وتكرار الحركة
(18) مصدرا، منها:

«قبل الحبل وعرقده وعسده (فتله).
عكف (طاف حول الشيء) - عقى العقاب
(حام حول الشيء وارتفع). العصابة -
العمامة - عاف الطير (دار حول الشيء
يريد الوقوع عليه..)

- وكان للعوج والميل واللي (29)
مصدرا منها:

«عتش الشيء (عطفه وأماله) - عدل
الطريق وعسق الشيء وعصفه، وعَنَّدَ عن
الطريق بمعنى (مال). عصد الشيء وعفته
وعفص يده وعفش العود وعقه بمعنى
(لواها). العنكة (ما تثنى من لحم البطن
سمنا) - العوج...».

(العين) المشددة المفخمة. منها (18)
مصدرا جذرا للعلو فقط، منها:

«عب البحر (كثر موجه وارتفع).
العاهر (الممتليء الجسم الطويل). عرج في
السماء (ارتفع وصعد). العراهل (الضخم
الفاحش الطول). العلو - عاطت العنق
(طالت...)».

د - وكان منها (11) مصدرا للصفاء
والضياء والعيانية، بما يتواافق مع صدى
صوته في النفس، مرقاً منعما. منها:

«عرب عربوبا (فصح) - عرف -
العراض (اللمع المضطرب) - العقل -
العلم - العين...».

ه - وكان منها (64) مصدرا تدل
معانيها على العقد والربط وأدواتهما، وعلى
الفتل والدوران، ثم على العوج والميل.
أسرة من الأحداث يجمع بينها عامل حسي
منظور هو بداية حركة دائيرية تكتمل
تارة، وتتكرر تارة أخرى، وتفشل أحيانا
فتظل مجرد عوج أو ميل. وهذه الخاصية
في حرف (العين) تتواافق مع واقع تشكل
الحلقة الملساء في أول الحلق حين خروج
صوته بشيء من التواتر والتكرار.

ونظرا لأهمية هذه الخاصية في
الحديث عن حروف المعاني سنستعرض
المزيد من الأمثلة.

في المفاصل). وذلك لأن صوت (العين)
يلفظ هنا بلا تواتر ولا تكرار.

على أننا لم نعثر في المصادر التي
تنتهي بحرف (العين) على ما يدل على أي
من هذه المعاني سوى كلمة الفدع (العوج